أصاب الدكتور النفيسي، ولكن ! ..الفلوجة وما بعدها ..

16-4-2004

إن قصر الرؤية لملحمة الفلوجة من بعد واحد مرتبط بما يسميه الدكتور النفيسي "المواجهة الرأسية الغلط " فيه إهدار حقيقي لكثير من النتائج الكبيرة التي تحققت في الأيام السابقة، وفيه تجاوز لمعالم التحول البادية اليوم

بقلم محمد سليمان

مواد ذات علاقة

الفلوجة: التجربة المرة في المواجهة 'الرأسية' الغلط ؟

تمكنت المقاومة المسلحة العراقية في الفترة الأخيرة من تحقيق انتصارات نوعية على قوات الاحتلال، لا تتجسد في عدد الجرحى أو القتلى الأمريكان، وإنما تتمثل في كسب جزء كبير من الحرب النفسية ، وفي وجود مقدمات لتحول جديد في إدارة الصراع مع قوى الاحتلال ..

ففي الوقت الذي كانت تمتلك فيه الولايات المتحدة أغلب الأوراق الرابحة في المعادلة العراقية بدأت تفقدها بشكل واضح وكبير باعتراف عدد كبير من الخبراء والمنظرين الأمريكان، وقد توالت المقالات والتحليلات التي تعترف بحجم وخطورة المأزق الذي وصل إليه الأمريكان في الأيام الأخيرة، كتب عن ذلك الخبير الأمريكي المعروف بريجنسكي في مقاله : نعم أمريكا أقعدت الشرق الأوسط كله على نار وبركان (صحيفة الشرق الأوسط 16/4/2004) والمرشح الديمقراطي كيري، وأيضا فريد زكريا في مجلة News Week (20 أبريل 2004) وقد طالبا الإدارة الأمريكية بالاعتراف بالمأزق الذي وصلت إليه في العراق وبالأخطاء الخطيرة التي ارتكبتها، وكتب غير واحد من المحللين والخبراء الذين يطالبون بتعديل الاستراتيجية الأمريكية للتعامل مع المتغيرات الجديدة.

ومن الواضح من الرؤى السابقة ومن شواهد الواقع حدوث تطور كبير في المرحلة السابقة تمثل هذا التطور في خروج الصراع المسلح من دائرة المربع السني إلى المستطيل العراقي ، وهو الأمر الذي يشكل نقلة نوعية مهمة في قواعد الصراع ، وكذلك الأمر في وجود دور ملحوظ ومؤثر لهيئة العلماء المسلمين وقد هددت أخيرا بإعلان العصيان المدني العام، كذلك بشعور عدد من أعضاء مجلس الحكم الانتقالي المؤيد للأمريكان بالحرج والتعارض مع "المزاج الوطني العام" مما أدى إلى استقالة عدد من الأعضاء احتجاجا على الفلوجة، ومن المتغيرات الجديدة - كذلك - رفض الجيش العراقي ضرب المتظاهرين والمحتجين وقد تطورت المسألة إلى درجة محاصرة القوات الأمريكية للكتيبة 36 العراقية، أيضا انقلاب عدد من الشرطة بأسلحتهم وانضمامهم إلى قوات الصدر ..الخ .

بالتالي : يمكن الوصول إلى نتيجة مهمة، وهي : أن الأيام السابقة شهدت تطورات ومتغيرات قد يترشح عنها تحول جذري في قواعد الصراع وأدواته، وهو الأمر الذي تشتغل الآن بنوك التفكير الأمريكية ودوائر صنع القرار والخبراء هناك على استدراكه قبل أن يتحول الأمر إلى ما صار يطلق عليه بـ "فيتنام بوش الابن".

لذلك، إن قصر الرؤية لملحمة الفلوجة من بعد واحد - مرتبط بما يسميه الدكتور النفيسي "المواجهة الرأسية الغلط " أو ما يسميه حازم صاغية "الوعي الفلوجي" (في إشارة إلى أخطاء في التفكير والوعي السياسي)- بحيث يستند هذا البعد على كارثية المواجهة الدامية وما نجم عنها من قتلى وجرحى ودماء وعدم تناسب الخسائر، والعدد الكبير والمحزن للمدنيين والأطفال الذين احترقوا بنيران الأمريكان، وكل هذا بسبب الدخول في مواجهة ندية بين عصابات مسلحة تسليحا خفيفا وبين جيش مزود بأسلحة الدمار والحرق. أقول : إن الاقتصار على هذه الرؤية فيه إهدار حقيقي لكثير من النتائج الكبيرة التي تحققت في الأيام السابقة، وفيه تجاوز لمعالم التحول البادية اليوم.

ولعل التعامل السليم مع الأمر يتم من خلال الاستفادة من التحولات والعمل على تطويرها على الصعيد الداخلي العراقي، وتجنب كثيرا من الأخطاء والمآسي التي وقعت بسبب الموازنات والحسابات الخاطئة من قبل المقاومة العراقية، وإن كانت أكثر رؤى الكتاب تتم عن بعد، وربما لا تلم بالتفاصيل المطلوبة، إلاّ أن هذه الرؤية تشير إلى أن هناك ضرورة ماسة لتجنيب المدنيين والسكان العزل استحقاقات صراع مسلح مع قوة لا ترحم وإدارة مصابة بحمى أيدلوجية. كما أن هذه الرؤية تشير إلى ضرورة الاعتماد على حرب العصابات المدروسة والعمليات النوعية والتي يقوم بها الشباب بدلا من الأحياء والشوارع المناطق السكنية

وفي – حدود هذه الرؤية عن بعد – نجد أن المشكلة ذاتها تتكرر في فلسطين وفي العراق وهي الدخول في مواجهات غير متكافئة تؤدي إلى خسائر كبيرة، والمراهنة على حسابات خاطئة على هذا الصعيد، فأن يتصدى أطفال لدبابات العدو بالحجارة صورة تظهر على المستوى الإعلامي والنفسي حجم الوعي والنضال الذي وصل إليه الشعب الفلسطيني، وأن يقوم أبطال مخيم جنين بشن حرب شوارع ضد الاحتلال الصهيوني ويكبدونه خسائر وتستعصي جنين عليه أياما طويلة – رغم فارق القوة الكبير – أيضا صورة تقدم من خلالها ملحمة بطولية عظيمة لشعب عظيم ، لكن ما الثمن المقابل لهذه التضحيات الكبيرة ؟! ..

في جنين كما هو الحال في الفلوجة خسائر كبيرة وأطفال أبرياء ونساء ..الخ ، ضحايا في معركة غير متكافئة ابتداءً ، ومسؤولية أخلاقية على حكومات وأنظمة فقدت الإحساس الأخلاقي واستمرأت الكذب والخداع بوثائق مسجلة ومدونة وواضحة (كما هو الحال في كتاب أسلحة الخداع الشامل وكتاب أخبرني عن الأكاذيب) . .

حسناً، ملحمة الفلوجة وبطولات الرمادي وأحداث النجف ومدينة الصدر كلها أدت إلى نتائج مهمة في إدارة الصراع مع الاحتلال، رغم المآسي والخسائر المؤلمة. لكن علينا أن نستثمر الأمر إلى أقصى مراحله، وذلك بتكريس هذا التحول وتعميقه وتعزيزه في أرض الواقع، ويمكن ذلك من خلال عدة خطوات ضرورية في المرحلة القادمة :

- ضرورة تقوية خطوط الاتصال بين القوى والأحزاب والجماعات المسلحة العراقية، وذلك في محاولة لتوحيد نهج وأدوات العمل المسلح، وتوزيع قدراته، كي لا يقع الثقل على عاتق جبهة واحدة، والعمل على وضع استراتيجية عسكرية تحدد الأهداف والأدوات والمبادئ والبدائل.
- بدا واضحا تزايد دور هيئة العلماء السنة في الجانب السياسي والاجتماعي، ويمكن أن يتطور هذا الدور ليتشكل من خلال هذه الهيئة مجلس سياسي يشكل الواجهة السياسية السنية لمقاومة الاحتلال، وأن يتولى التنسيق مع الأطراف الأخرى وصولا إلى بناء جبهة اجتماعية – سياسية عراقية عامة في مواجهة الاحتلال، ورسم خطوط الجهاد المدني السياسي المرادف للمقاومة المسلحة.
- من دروس الفلوجة تجنب ما يسميه الدكتور النفيسي "المواجهة الرأسية الغلط"، والعمل على إجراء موازنات صحيحة مبنية على استراتيجية التضحية، وحساب التكاليف والخسائر في تحديد ساحات العمليات وأدواتها .
- ضرورة تجنيب المدنيين والعزل نتائج المقاومة المسلحة، والتمييز بين ميادين الجهاد السياسي والثقافي والقانوني وبين الميادين العسكرية لتصب مجتمعة في رفض الاحتلال، وتطوير الإجماع الوطني والسياسي مع الاعتراف بكافة أوجه الجهاد وأدواته.
- كما تدعو الحاجة الماسة والفورية، ولعل هذه رسالة نوجهها للدكتور النفيسي - وغيره من وجوه العمل الإسلامي والوطني– إلى العمل على عقد مؤتمر شعبي عاجل لدعم المقاومة العراقية والفلسطينية، وتوفير موارد الدعم المالي والنفسي والإعلامي والسياسي، وأرى أن هذه المهمة عاجلة ولا تقبل التأجيل، وستشكل سندا معنويا كبيرا لجهود علماء الجهاد والدعوة في العراق ، وضرورة البدء بالتنسيق مع هيئة العلماء لبناء جسور التواصل والتنسيق المطلوب .
- ويجدر التساؤل هنا عن مشاريع طموحة بدأها عدد من المفكرين والعلماء لمدافعة العدوان الأمريكي : أين أصبحت؟!، هل نبتت لها مؤسسات وآليات أم بقيت حبرا على ورق وبيانات محدودة، أين الحملة العالمية لمقاومة العدوان الأمريكي التي يرأسها الدكتور سفر الحوالي؟ وأين الحملة العالمية التي شكلها القوميون واليساريون؟، أين الفعاليات الشعبية والثقافية للوقوف مع أهل بغداد في جهادهم الكبير ...

يقوم الأمريكيون اليوم بمراجعة الوضع في العراق لصوغ استراتيجيات جديدة، وتقوم بنوك التفكير هناك في تقييم الأوضاع ووضع الاحتمالات والتوصيات، وتجري عملية غربلة كاملة للسياسة. وهو الأمر المطلوب منا نحن بدلا من استغراق الوقت والفكر في خطابات تدافع عن المقاومة أو خطابات تتهجم عليها، فلنقف مع العراق في هذه المرحلة الحاسمة، لأننا في الحقيقة نقف مع أنفسنا.

للعودة للأعلى